شيطان بنتؤور

« المحادثة العاشرة »

قال الهدهد : جاء الأثر ، ونجى الحجر ، يتطلب فيهما الخبر ، ويأخذ الخبر عمن غبر . لما أصبحت أعدت أمسى فى يومى كما يفعل قرينى فباشرت أشغالا لاتنفع ، وأخذت بأعمال لاترفع وأكلت كالأمس وشربت كالبارحة ولقيت الوجوه المألوفة وجلست المجالس المعتادة وقرأت جرائد مشحونة الصفحات أكثر مافيها الاعلانات

إذا أنت لم تحيا الحياة كبيرة ولم تبق ذكرا فى البرية خالدا

وعشت تعيد الأمس فى اليوم خاملا فقد عشت يوما فى الحقيقة واحدا

الى أن سرى الأصيل فتنقلت من شاطىء إلى شاطىء ولفظتنى ضفة إلى ضفة وكنت أخذت من كلمة النسر فى صرفى وما رسم له ربه من الوقوف بى على الفسطاط والاشراف بى من معالمها واضطلاعى على مواكب دولة العرب فيها ، أن بساط الرؤيا قد انطوى فيما يتعلق بمنف والدول الأولى ، وأنا قادمان على الفسطاط مستقبلان وجوه العرب وافدان على هذه الدولة التى وصف الرشيد ما كانت عليه من انبساط الظل وامتداد النفوذ واتساع الملك والسلطان فى قوله لغمامة ظللته ولم تمطر ، وكان يرجو أن يستدفع الحر بمطرها . أمطرى حيث شئت كان خراجك ، سوف يجيء إلى . وفى ضوء هذا الفجر سرى الاسبانيون فى أيام دولتهم حيث زعموا الشمس لاتغيب عن أملاكهم ثم زالت هذه الكلمة عنهم الى الانكليز فهى آية ملكهم اليوم ثم ترثها أمة غيرهم ، سنة الله فى خلقه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

(قال) فلما صرت فى منف رأيت الدهر قد جعل عاليها سافلها وصيرها كبعض القرى ولم يبق عليها من انقاض ذلك البنيان الباذخ وبقايا تلك العمارة الكبرى الا آثار ههنا وهنا . منها القائم ، وكان قاعدا والقاعد وكان قائما وبعضها مشوه فى أحسن محاسنه منقوص من أطرافه أو مفقود تفتش عن مكانه لاتجده فتعجبت أعجب للدهر كيف طال على ذلك الطول وعلا فوق تلك العلياء وانتهى النظر فأرى قصور الرومان موحشة مهجورة وكانت بالأمس آهلة معمورة أخنى عليها الذى أخنى على

منازل الفراعنة من قبل ، وأنظر أكواخ الفلاحين نموج بنسائهم وصغارهم كبيوت النمل وقد سكنوا الى الدولة القائمة كما سكنوا إلى الدولة من قبلها فأقول فى نفسى هكذا الحكماء والا فلا فلو رد أمير المؤمنين على رضى الله عنه لى الحياة وهو أزهد خلق الله فى الدنيا لما اخذ حقيقة الزهد إلا عن هذه الأمة . بينما أنا أنظر حولى بعين تعتبر وأخرى تستعبر اذا صوت لنسر يستصيرنى اليه فوافيته وكان عند قدمى رمسيس وهو من حجر وعهدته بالامس عند رأسه وهو بشر محتضر ، فابتدر خطابى يقول .

ما بال الهدهد يستعبر يبكيه من الايام أن تتصرف بالانام و رحاها تطحن على الدوام وسيفها على رقاب الأقوام فى الحرب والسلام . أنظر يا بنى إلى الحسد كيف حمل الأمم على الازراء بالقوم بعد أخذ ثارهم . والعبث فى ديارهم بعد العبث باثارهم وهدم البقية الباقية من منازلهم فقاتلوا الحجر وحاربوا الأثر وسبوا التماثيل والصور ودخلوا على الأموات الحفر ، ولو استطاعت احداهن أن تدعى صنعا لبعض هذه الآثار لفعلت ولامتلأت منها فارس فاثينا فروما فقد صدر عن الرومان انهم كانوا يستعيرون رؤوس التماثيل مما ترك اليونان الاجسام مما صنعت أيديهم وبالعكس ثم يوهمون أن الكل من عملهم وهذا عند ذكر السرقة غاية . أتى على شيطانى يابنى عشرون قرنا يجاور الآثار . و يندب على طلول الديار وهى نهب بيد البلى والدمار فلم أعهد أن أيدى العابثين انتقضت منها وأكف المخربين انكفت عنها إلا منذهبط العرب أرض مصر . قلت لنظر القوم يا مولاى . قال وانهم لاهله يابنى فما حكم بين الناس أعدل من عمر ولا سادهم أفضل منه ولئن صدق أن فى القول شيئاً من القائل فعمر هو الانسان الكامل حيث يقول :

« رأيت جميع البر فلم أر براً أفضل من الرحمة » . والرحمة فى اعتقادى أعلى مراتب الاخلاق وقد جازت بعض الانبياء فى بعض الأمر ولم تجز عمر فى شىء منه قلت انى إذن لسعيد يامولاى أن أعلم من أمرهم بالمشاهدة والعيان ما أضيفه الى معرفتى فى التاريخ . قال لا تزال فى إجلالهم ووقارهم والاعتناء بأمرهم والنظر فيما يأتون ويذرون والسكون الى ظلهم فى مصر حتى يقتلوا عثمان ويفتك المصريون منهم بالوقور فى الصحابة الكريم فى الأصهار والسمح فى الخلفاء الكبير فى الشيوخ فاذا فعلوا ودعنا

أيامهم و نبذنا جوارهم ووكلنا الى السماء تأخذهم بدمه فتصب عليهم المصائب وتنزل بهم المحن وتغمسهم فى الفتن و تبدلهم من الخلافة الحقة بالملك الباطل و تردهم الى نعيم الدنيا الزائل

قلت لقد رضيت بما رأيت لى يا مولاى وحسبى أن أعيش يوماً واحداً فى خلافة عمر و ولاية عمر . وقال الآن تهيأ للزيارة ونستعد للخروج الى مقر الامارة فسطاط الأمن والعمارة ضالة عمر والتى طالما نشدها ولم يألها طلبا حتى وجدها

قلت أشبه الناس مسعاة يامولاى فى الزمن الحاضر اللورد كتشنر حاكم السودان بالامس وسيف انكلترا العامل فى جنوب افريقيا اليوم فقد علم الخاص والعام عن هذا الرجل المقدام انه نظر فى أمر فتح السودان وهو ضابط ضئيل الشأن قليل المكان والامكان ليس له بمثل هذا الأمر العظيم يدان فجعل بعدله الصبر و يعمل له فى السر والايام فى هذه الاثناء ترفعه والسعد الى السعد يدفعه حتى انتهت اليه أمرة الجيش فى مصر وآلت اليه السلطة العسكرية فى هذا القطر وأصبح من رفعة المنصب بين رجال الاحتلال بحيث يسمع صوته فى قومه ومن علو الكلمة فى الحكومة المصرية بحيث لايمانع فى أمر يحاوله فثبت عندئذ وفى نفسه أمر، وتدرج فيما يحاول من السر الى الجهر وكاشف الحكومة الأنكليزية بما يريد من فتح السودان ونشر العلم البريطانى فى ارجائه فكانت مشيئتها ماشاء كبدأها بازاء رجالها الامناء وها قد مضى على السودان عامان يخفق على دور الحكومة فيه الغلمان ويخفق من الحسرة عليه فؤاد (مرشان)

قال كذلك زين عمرو لعمر فتح مصر وكذلك فتحها والتاريخ كما قيل مكرر معاد . وقد حدثك رمسيس عن الاقدام وذكر لك فضله وشرح لك مزاياه وهذان دليلان قاما عرضا فى الحديث على صدق قوله وصواب رأيه وما كان رمسيس ليعرف الشوق ولا الصبابة لولا انه كابدهما وقاسى وكان فى مقدمة رجال الاقدام فان أردتم بينكم خيراً وضعفت قلوبكم ان تتمادوا فى الجناية عليهم فربوهم منذ الصغر على الاقدام فانه كما قال رمسيس سعادة الافراد وحياة الامم

قلت أوشك الاصيل يامولاى ان يفيض ذهبه فلو أمرت انتقلنا الى الفسطاط . قال تلك مقدمة لم يكن لنا عنها غنى والآن لك أن تطير معى الى حيث الاسلام يحكم

والاخلاق تسود قلت إن أذن مولاى بدلنا هذا الزى بغيره لنأمن نظر الرماة وزجر الجماعات . قال الناس والطير وهذه الحجارة ، وأومأ الى الاثار ، فى كلاءة رجل يتقى الله فى السماء ويخاف عمرا فى الارض . فلو نالنا أحد فى حماه بظلامة لفزعنا بالشكوى الى صاحب الامامة ولا نشدناه (جاءت سليمان الزمان حمامة)

على أنه لابأس بتغيير الزى فايهما تختار القبطى أم العربى قلت الثانى يامولاى . لانه لباس الفاتح وشعار الحاكم ينبىء عن عز الملك ويخبر عن سناء الدولة وقد خلفت جنود الملك ادوارد فى مصر يتنحى السراة لاحدهم حتى يعبر كأنه فى رداء ولتون أومطرف نابليون وان مست طرف ثوبه يد مسها السيف

قال ليس هذا شأن عمرو وأصحابه فى مصر فهم المؤمنون العزة لهم ولمن فى ظلهم بالسواء . وقد كان الرومان قبلهم كمن ذكرت من الادلال على هذه الأمة والمرح فى هذه الارض على مابينهم وبين القبط من مودة فى الدين ورحمة فكان الصليب يعلو على الصليب والناقوس يخرس الناقوس والكنيسة تزرى بالكنيسة . وكان مذهب الرومان فى عبادة المسيح هو الدين كله وما سواه فضرب من الهذيان يسخر من أهله ويعتدى على أصحابه وكان الامير فى القبط يحكم فيه سوقة من الرومان وكانت الحكومة الكبرى فى روما عمياء عن هذا الظلم المبين صماء عن تظلم المصريين إلى أن قدم العرب مصر وتم لهم على الرومان النصر واطمأن عمرو بالولاية وسكن أولئك البؤساء إلى حكومته السمحاء . ودخلوا فى الاسلام أفواجاً يحببه اليهم تسمح العرب وحلم زعيمهم واجتماعهم على كلمة الاسلام وتساويهم فيما جاء به من الاحكام وكونه بينهم كالحقيقة لاتقبل الانقسام ولا يجادل فيها الخاص فكيف العام وان سيرة (العامل) وأصحابه فيهم هى أقرب مما أراد المسيح عليه السلام من الناس أن يتساووا ويتصافحوا ويتعاونوا أن يكونوا رحماء بينهم وأبعد عما أراد القسوس بالناس منذ القدم من شغب التمذهب وفتنة الانقسام والتفرق ازاء الحقيقة الباهرة . العرب فى مصر بضعة آلاف وفيهم المقاتلة فكيف فتحوا ثم كيف أصلحوا ثم كيف وطدوا فيها بنيانهم وعلموا أهلها لسانهم ثم كيف استأصلوا الوثنية من هذا الوادى وزحزحوا منه النصرانية وارسوا فيها الحنيفية ، كل ذلك فى أيامهم الأول بل فى

حكومة ابن العاص. إذا أضفت إلى ذلك أن الدعوة إلى الاسلام لا تقوم على الحول ولا الحيلة علمت أن العرب تعلموا حقيقته ثم علموها الناس فكانوا حينما استعمروا من الارض كالمصباح الذى يحمل النور الهوى

واذا الديانة لم يصنها أهلها خفيت خفاء النور بعد ظهور

اخفاء مصباح حواه فاسد فالذنب للمصباح لا للنور

قلت أرى الحديث فتح بعضه بعضاً يا مولاى فاذا اخترت لنا من الزى. قال قد انتدبنا يابنى للنظر والاختيار واستقراء أحوال العرب فى هذه الديار فما لنا لا نتلبس بلباس المحكوم ونتردى ثياب المؤتمر لكى ينظر بعينه ويسمع بأذنيه فان كان شقياً بدولة القوم تعباً بحكومتهم عرفنا ذلك بالخبر لا الخبر وشفعنا له عند عمرو أو عمر وإن كان ناعماً فى ظلهم راضى العيشة على عهدهم أخذنا بنصيب من حاله ووقفنا على حقيقة أمره.

(قال الهدهد) وبينما نحن فى الحديث لم نبرح المكان هتف هاتف بالاذن ودقت بالناقوس يدان فلم أدر إلا ونحن على الفسطاط فى زى قسيسين من الاقباط فضحكت من نفسى وعجبت لاختلاف يومى وأمسى والتفت إلى النسر فرأيته يتبسم كذلك فتمثل بهذا البيت من الشعر وهو من قصيدة لى فى مديح العباس

قد بشر الناقوس بالمسلم العا دل من قبل بشير الاذان

قلت هذا ما حليت به العباس يا مولاى فكيف نزعته عنه وكسوت عمرا قال بضاعة عمرو ردت اليه فلا والنفس والخلود ودين الآباء والجدود، ما فتح لابوة العباس فى مصر إلا بسر هذه الراية ولا دخلوها إلا ليعزوا هذه الراية على أن الشعراء كثيرا ما يمدحون زيدا ويعنون عمراً وقد صدق صاحبنا من حيث كذب فى قوله

وإن جرت الالفاظ يوما بمدحه لغيرك انساناً فانت الذى تعنى

قلت إنك لتزرى باصحابك يامولاى

قال ما كانوا لى أصحاباً وهم ينزلون بالشعر عن رتبته ويجعلونه حيث لا يرضاه الادب لا يمدحون حمداً ولا يهجون مذما ولا ينظمون فى الطبيعة والتاريخ اللذين هما أم الشعر وأبوه ويخاطبون كلمة باقية وأخرى فانية

هذا صاحبك الذى سير الامثال حكما والحكم أمثالا وجرى فى الشعر إلى

الغايات فسبق السابقين وبز القائلين يقول هذه الحكمة العالية ويرسل هذا المثل المحكم بذا قضت الايام مابين أهلها، مصائب قوم عند قوم فوائد . وتراه يقول بعد ذلك

نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بانك خالد

وما أحسن هذا الشعر وانطف هذا التصوير لو لم يتجرد فيه الشاعر من رقة القلب ورحمة النفس وكرم الشيمة فهو يبيح ممدوحه دماء العباد ويملكه أعمارهم وينوه بسفح الدماء وسفكها ويتمنى لو بعد ذلك الانفراد بالخلد الذي كرهه أبو العلاء لنفسه حيث قال : —

ولو انى منحت الخلد وحدى لما آثرت فى الخلد انفرادا

فهلا هجر أبو الطيب الصناعة الى الروحانية التي هى حقيقة الشعر ورجاحة الموزون والمراد من المنظوم والروحانية لاتقوم على مثل هذه الجفوة والقسوة والغلظة لكن تكون بمثل ماقال فى مثل هذا المقام

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجانى عقاب

تأمل يابنى هذين البيتين وانظر كيف هدمت صناعة الاول ورفعت روحانية الثانى وأقبح من بيت المتنبى فى استباحة دماء الافراد بيته فى استباحة جماجم الملوك

وجنبنى قرب السلاطين مقتها وما يقتضينى من جماجمها النسر

فما قتلة كارنوو هنبرتو واليزابيت ومكنلى وما اقتضتهم الفوضوية من صدور الملوك والملكات وجنودهم واحشائهم بأشنع ولا أفظع ولا أبغض الى السموات وما أظللن والارضين وما أقللن ، من نسر صاحبك .

وانى لا عجب للفوضويين كيف لم يهتدوا لهذا البيت فيتخذوه شعارهم أو يتخذوا فيه قرارهم

(قال الهدهد) ورأيت الناس يهرعون إلى صلاة المغرب فندمت على مافاتنى من المشاهدة والعيان فى هذه الزورة الاولى وقلت للنسر قد كان لنا يامولاى غنى عن أبى الطيب وحديثه والنظر فى طيبه وخبيثه . لاسيما وهذا أول أصيل قضيناه على الفسطاط فأخذ النسر من عبارتى الغضب وقال أحدثك عن شعر العرب وشاعرهم ونحن قادمون على دولتهم فى ابتدائها بمصر فتزعم انى حدت عن الغرض وخرجت من الموضوع

وما الشعر والبيان الا عنوان الامم يستدل به عليها . ثم تثاءب النسر وقال موعدنا غدا مجلس عمر وما هى الا اغماءة ثم اذا أنا بحلوان .